الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 17) – 1994 – 1414

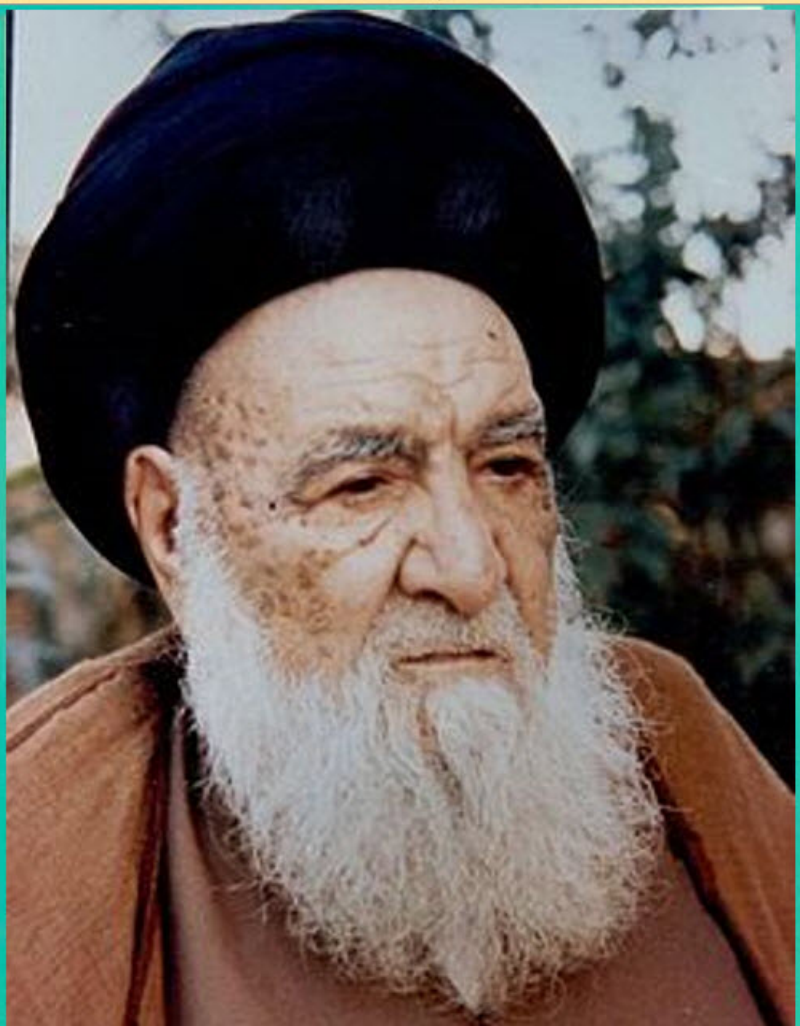

آرشيو مخطوطات
نازه رضا عوض الحلبية
٢١٢٣٠

الرافد

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

١٧

ترسل جميع المراسلات والطلبات باسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

«مؤسسة مسجلة في المملكة الهولندية»

KUFA ACADEMY
POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
[HOLLAND] - TEL, FAX: 01860 - 20712

الاشتراك السنوي ١٠٠ دولار امريكي

فكر الامام الخوئي (قده) في التراث الاسلامي الشيعي المعاصر

الدكتور طراد حمادة

تعيين مكانة فكر السيد ابي القاسم الخوئي (قده) في تاريخ الفكر الاسلامي الشيعي المعاصر والدراسات التي تناولته او تلك التي ستجعله موضوع بحوثها وموضع اهتمامها يشبه الى حد بعيد تحديد موقع الشيء من نفسه. ذلك ان السيد الخوئي أمضى حياته الشريفة في دراسة هذا التراث وفي تدريسه، وكتب وصنف على مدى نصف قرن ونيف في مباحثه مطوراً ومجدداً في علوم القرآن وتفسيره، والحديث ورجاله والفقه واصوله اضافة الى علم العقائد والكلام وبعض جوانب الحكمة النظرية والعملية.

حين هاجر السيد الخوئي من بلدته خوي في ايران الى النجف الأشرف في العراق كان قد عزم على دراسة العلوم الدينية وظهرت لديه قابليات لاحظها والده المرحوم السيد علي اكبر الخوئي، كيف والسراج في غرفة ابنه الفتى يستمر مضاءاً حتى مطلع الفجر وهو منصرف الى كتبه شغوف بالقراءة. كان والده يسعد اليه معاتباً: سيد أبا القاسم كفى هذه الليلة فقد طلع النهار.

كانت النجف الأشرف الجامعة العلمية التي مضى على تأسيسها اكثر من ألف عام تحتفظ بمركزها العلمي، ويرحل اليها الطلاب من جميع البلدان وتشهد حركة علمية مستقرة، ونشاطاً سياسياً عاصفاً من جراء الخلاف حول الحركة الدستورية التي ظهرت في ايران وأدت الى تقسيم الشعب الايراني الى قسمين: قسم يؤيد النظام الاستبدادي وقسم يؤيد النظام الدستوري وكذلك انقسم علماء الدين حتى طال الخلاف العلماء الكبار. وانتقل هذا الصراع الى النجف باعتبارها مركز المرجعية الدينية العليا ومدينة الحوزة العلمية. كان المرحوم الآخوند الخراساني من مؤيدي الحركة الدستورية والمرحوم السيد كاظم اليزدي الطباطبائي من معارضيها (١) وادى هذا الخلاف الى احداث دامية ومرة لكنه مثل بداية استعادة الفقهاء لموقع الصدارة في الحياة السياسية والتي اكمل النجف قيادتها في المراحل اللاحقة.

الحدث السياسي العاصف الذي شغل أساتذة السيد الخوئي، ترك في نفسه ذكريات عن مشاغل المراجع والمرجعية، لكنه لم يؤثر على دراسته وهو الفتى اليافع المهاجر مع أفراد عائلته في طلب العلم، وفي حوزة النجف الأشرف ما يحير الجادين في امرهم على تملك مبتغاهم العلمي بعيداً عن الأهل والوطن والأهواء والرغبات لينهلوا من معين مدينة العلم في جوار وقرب بابها حدود الاسلام ومناحيه التشريعية والخلقية والعقيدية.

كانت حوزة النجف العامرة العلمية التي ينشد اليها العلماء والطلاب وتزخر بهم. وقد استقرت مناهجها الدراسية مع تطورات محدودة، فقد أسسها الشيخ الطوسي (قده) في مراحل دراسية ثلاث مرتبة على الشكل التالي:

١) دراسة المقدمات ويدرس فيها الطالب المنطق والنحو والصرف والعلوم البلاغية والعروض وبعض النصوص الأدبية ومبادىء أولية عن الفقه والأصول.

٢) دراسة السطوح ويتفرغ الطالب فيها لدراسة الكتب الفقهية والاصولية المقررة.

٣) دراسة الخارج وهو الدور الذي يعتمد فيه الطالب على نفسه ولا يتقيد بكتاب ويحضر بحث الخارج يستمع الى توجيهات استاذه، ويستمر الطالب على هذا النحو الى ان يبلغ مرحلة الاجتهاد وخلال هذه الأدوار الثلاثة يتعاطى اطرافاً من الثقافات، كما تطبع الحوزة في شخصيات طلابها سمات وخصائص تمتاز بها عن سواها (٢).

واذا أردنا ان نحدد وضعية العلوم الحوزوية في تلك الفترة لأدركنا استقرار مدارس علمية وطرائق تعليمية كانت محور الدراسات في الحوزة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ مدرسة الشيخ مرتضى الانصاري التستري (١٢٨١ هـ) في علم اصول الفقه وقد نفح الشيخ في كتابه «الرسائل» هذا العلم وحرر طرقه العملية والتي تعتبر من أهم اقسام هذا الفن، وكانت مدرسته لاتزال قائمة وموضع تقدير العلماء الذين تصدوا لتدريس اصول الفقه من بعده، ومنهم الشيخ الاصفهاني (١٣٣٩ هـ) والشيخ ضياء الدين العراقي (١٣٥٥ هـ). والشيخ محمد حسين النائيني (١٣٦١ هـ)، وهؤلاء يمثلون ثلاث اتجاهات في مدرسة الشيخ الانصاري الاصولية، وبعضهم أسس لمدرسة مستقلة ذات طريقة خاصة به، وقد أخذ السيد الخوئي علم اصول الفقه عن الثلاثة وتتلمذ عليهم، ثم طور آراءهم كما سنرى في محله.

اما في الفقه فقد تطورت مدرسة المحقق العلي (٦٧٦ هـ) الذي يعتبر من نوابغ هذا العلم في كتابيه «المختصر النافع» و«الشرائع». وذلك عند الشهيد الأول شمس الدين بن مكي (ت ٨٧٦) صاحب اللمعة الدمشقية وفي آراء الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨) قدست أرواحهم الطاهرة ـ الى ثلاث متون فقهية شغلت فقهاء النجف والحوزات العلمية الأخرى، ومثلت أدوار الفقه الشيعي في بداية القرن وهي:

١) كتاب «المكاسب» للشيخ الأنصاري وهو المتن الأهم لدراسة حكم الاكتساب من الناحية الشرعية وفيه ابتكارات فقهية كثيرة، ذات أهمية استثنائية في هذا الباب الذي يعتبر محل ابتلاء عامة البشر.

٢) «جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام» للشيخ محمد حسن الجواهري (ت ١٢٦٦) الذي كان مرجعاً علمياً للشيعة في عصره وكتابه الجواهر دائرة معارف في الفقه الشيعي لا يمكن للفقيه أتى بعده أن يستغنى عنه.

٣) كتاب «العروة الوثقى» لفقيه الطائفة السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (ت ١٢٤٧) وهو متن موجز فقهي شامل مستوعب لكل الفروع والفروض والمسائل الفقهية بدقة وإمعان من فقيه محيط بكل الفقه مستحضر له وعليه تعليقات كافة المراجع والفقهاء من بعده.

أما بقية العلوم الاسلامية النقلية والعقلية، فكانت مهملة ومتروكة لجهد الطالب الفردي ولذلك لم تكن الحوزة بالشكل الذي كانت عليه جامعة تضم مختلف العلوم الاسلامية، بل أشبه ما تكون بكلية فقه تقدم بعض المواد الاختيارية مع شيء من الالزام غير التخصصي، لكن ذلك لم يمنع من وجود محاولات على غير هذا النسق المنهجي المشار اليه(٣).

شأن كل طالب مهاجر في سبيل العلم، باشر السيد الخوئي دراسته في النجف الأشرف بجد ونشاط وحماس ينبه الى نبوغه المبكر وحبه للعلم والتعلم. ويروي بنفسه وقائع هذه المرحلة من حياته. يقول: «حين وصلت النجف الأشرف، الجامعة الدينية للشيعة الامامية، ابتدأت بقراءة العلوم الأدبية والمنطق، ثم قرأت الكتب الدراسية الأصولية والفقهية لدى الكثير من اعلامها، منهم سيدي المرحوم العلامة الحجة الوالد «قدست نفسه» ثم حضرت الدروس العليا «بحث

الخارج» على أكابر المدرسين في سنة ١٣٢٨ .
وأخص منهم بالذكر أساتذتي الخمسة (قدس الله أرواحهم الطاهرة) وهم:
ـ آية الله الشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة الاصفهاني.
ـ آية الله الشيخ مهدي المازندراني.
ـ آية الله الشيخ ضياء الدين العراقي.
ـ آية الله الشيخ محمد حسين الاصفهاني.
ـ آية الله الشيخ محمد حسين النائيني.
وان الاخيرين أكثر من تتلمذت عليهما فقهاً واصولاً. فقد حضرت على كل منهما دورة كاملة في الأصول وعدة كتب في الفقه حققته من السنين وكنت أقرر بحث كل منهما على جمع من الحاضرين في البحث، وفيهم غير واحد من الأفاضل وكان المرحوم النائيني آخر استاذ لازمته (٤).

نأخذ من هذه الترجمة الذاتية ما يفيد موضوع بحثنا في تعيين علاقة السيد بأساتذته وتحديد مصادر تفكيره، حيث يتضح من روايته انه خص والده بالذكر من بين أساتذته في مرحلتي المقدمات والسطوح بالرغم من دراسته عند أكابر اعلام الحوزة، وذلك لأهمية دور الأهل في توجيه الطالب والعناية به والقيام على تربيته ومتابعة شؤونه في هذه المرحلة الدراسية، ثم بانتهائه لمرحلتي المقدمات والسطوح في ستة سنوات ظهرت فوائد رعاية الأهل وكذلك حسن اشتغاله وعلامات نجاحه في مراحل الدراسة الأولى . وهي في الواقع كالأساس المتين بالنسبة للبناء في تأثيرها على مرحلة بحث الخارج «الدراسات العليا».

الى جانب ذلك أشار السيد الى اجتهاده وانه كان طالبا مجدا بالقول انه قرر أبحاث أساتذته على جمع من الطلاب فيهم غير واحد من الافاضل، وهي اشارة لطيفة الى مكانته المميزة في الدرس والتي سمحت له بالانتقال الى التدريس في سن مبكرة. حتى برز في هذا المضمار بشكل لا سابق له فيه. وكان «أستاذ الكل» كما ذكر أكثر تلامذته في مقابلات خاصة. وزعيم الحوزة العلمية اللقب الذي استفاده من دوره في التعليم وفي المرجعية. ولعل هذه الناحية من ابرز المعالم الفكرية التي تستحق الدراسة بعناية في سيرة السيد الخوئي وتطوره الفكري ، ويقول عن هذه المرحلة: «لقد اكثرت من التدريس وألقيت محاضرات كثيرة في الفقه والاصول والتفسير، وربيت جما غفيرا من الافاضل في حوزة النجف الأشرف (٥).

لقد تداخلت مرحلة دراسة السيد لبحوث الخارج ومرحلة انتقاله الى التدريس بشكل يجعل الحكم على بداية مرحلة التأليف والتصنيف تقارب مرحلة كتابة التقريرات، والواقع ان التاريخ لنتاج السيد الخوئي يجب ان يبدأ في مرحلة كتابته لتقريرات محاضرات استاذه النائيني، وعليه نشير الى ان هذه المرحلة اعطت في بواكيرها الأولى ثلاث نتاجات رئيسية ترتبط بشكل مباشر في المحصلة التي توصل اليها الفكر الاسلامي الشيعي منتصف هذا القرن وهي تبدو كمقدمة لدراسة موقع السيد من هذا الفكر والتجديد الذي أحدثه في تطور العلوم الدينية عند الشيعة الامامية وتحول مصنفاته وكتبه الى متون اصولية وفقهية وتفسيرية ورجالية تعتبر محور الدراسات الشيعية الراهنة لبحوث الخارج في الحوزات العلمية للمسلمين الشيعة . وسنبين ذلك في مباحث الأصول والفقه وكذلك التفسير والرجال ضمن الاصلاحات الذي حاول ادخالها على مناهج التعليم وطرائقه في الحوزة العلمية.

علم أصول الفقه

قرر السيد الخوئي دروس الدورة الاصولية التي حضرها على استاذه النائيني في مجلدين اختار لهما عنوان « أجود التقريرات »(٦) وفيه يظهر ان السيد الخوئي مجدد داخل مدرسة النائيني في الاصول. لكن مباحثه الاصولية اللاحقة وتدريسه لهذه المادة في ستة دورات متتالية مدة الدورة منها من (٥ ـ ٦) سنوات، وانه باشر دورة سابعة توقفت عند مبحث الضد تقرر ان السيد الخوئي يمثل مدرسة اصولية مجددة وذات معالم مستقلة ، مستفيدة من وتيرة تقدم علم الأصول التي بدأت مع الشيخ البهبهاني وبلغت قمتها مع الشيخ الأنصاري ثم حافظت على قوة اندفاعها ووتيرة نموها مع اساتذة السيد الخوئي وخاصة النائيني الذي عرف باشتهاره بعلم الأصول وبمعارضته لآراء استاذه الشيخ الأخوند الخراساني الأصولي البارع ، ولقد أدخل النائيني آراء جديدة في الأصول شجعت تلامذته على متابعة مسيرة التجديد في هذا العلم ومنهم بشكل خاص السيد الخوئي الذي وفق الى تطوير مدرسة النائيني وبناء طريقته الأصولية المستقلة وفي هذه المسألة تواجه أسئلة عديدة نحاول الاجابة على بعضها في هذا البحث مع اشارات تفيد من يرغب في متابعة معالم المدرسة الاصولية عند السيد الخوئي ومنها:

١) ان السيد الخوئي الذي اعترف بملازمته لاستاذه النائيني، والذي قرر دورته الاصولية صرّح في مناسبات عديدة لتلامذته ان معالم مدرسته الاصولية تأخذ من علم اصول الفقه عند كل من:

الشيخ ضياء الدين العراقي و الشيخ محمد حسين الاصفهاني و الشيخ محمد حسين النائيني . وأنه انتخب في اصوله افضل ما وجده عند اساتذته الأصوليين الثلاثة الذين يمثلون اتجاهات متنوعة في هذا العلم، وانه صرف جهدا كبيرا لتنقيح آرائهم وتهذيبها وتقديمها في ثوب جديد(٧)، كما انه جدد فيها حتى صارت مدرسته الاصولية مرحلة متقدمة ومميزة عن مصادرها الآنفة الذكر، أي انه بهذا المعنى طوّر علم الاصول الى مرحلة جديدة.

٢) الدكتور ابو القاسم الكرجي في كتابه «تحول وأدوار علم الأصول» يقسم تاريخ هذا العلم الى ثمانية دورات مفصلة، ويضع المولى محمد باقر بن محمد أكمل المعروف بالوحيد البهبهاني (ت ١٢٠٦) ممثلاً لآخر دورات الأصول ويضع السيد الخوئي في حلقة هذه الدورة(٨) ذاكرا له كتبه الاصولية التالية:

١ـ أجود التقريرات ٢ـ دورات الاصول ٣ـ مصباح الاصول ٤ـ جواهر الاصول ٥ـ مصابيح الاصول.

٣) الشهيد السيد محمد باقر الصدر يضع كتابه «المعالم الجديدة للاصول» الى ثلاثة عصور الأول: العصر التمهيدي وهو عصر وضع البذور الأساسية لعلم الأصول ويبدأ هذا العصر بابن عقيل وابن الجنيد وينتهي بظهور الشيخ، الثاني: عصر الحلم وهو العصر الذي اختمرت فيه تلك البذور وأثمرت وتحددت معالم الفكر الاصولي وانعكست على مجاملات البحث الفقهي في نطاق واسع ورائد هذا العصر هو الشيخ الطوسي ومن رجالاته الكبار ابن ادريس والمحقق الحلي والعلامة الشهيد الأول وغيرهم من النوابغ.

الثالث: عصر الكمال العلمي وهو العصر الذي افتتح في تاريخ العلم المدرسة الجديدة التي ظهرت في اواخر القرن الثاني عشر على يد الاستاذ الوحيد البهبهاني وبدأت تبني للعلم عصره الثالث بما قدمته من جهود متضافرة في الميدانين الاصولي والفقهي... والجيل الثالث على رأسه تلميذ شريف العلماء المحقق الكبير الشيخ مرتضى الانصاري الذي ولد بعيد ظهور المدرسة الجديدة عام (١٢١٤ هـ) وعاصرها في مرحلته الدراسية وهي في أوج نموها ونشاطها وقدر له ان يرتفع بالعلم في عصره الثالث الى القمة التي كانت المدرسة الجديدة في طريقها اليها ولايزال علم الاصول والفكر الاصولي السائد في الحوزات العلمية الامامية يعيش العصر الثالث الذي افتتحته مدرسة الوحيد البهبهاني(٩) .

٤) يذهب بعض الباحثين الى اعتبار السيد الخوئي أقرب في مدرسته الاصولية للاخوند الخراساني من استاذه النائيني، خاصة وانه ناقش آراء الأخوند في كثير من مبانيه الاصولية. البحث هام فتأمل.

٥) ان اعطاء السيد الخوئي سبعة دورات في الاصول ليس عملا عاديا. لأن ذلك يعني ما

يقارب النصف قرن من تعليم هذا الفن وذلك يقتضي التطوير والتجديد والبحث والمتابعة، ولذلك فان مباحث السيد في كتبه الاصولية الستة تمثل محور الدراسات في الحوزات العلمية في الوقت الراهن ولعل الاصوليين من تلامذته من أمثال السيد علي السيستاني والسيد محمد الروحاني والشيخ وحيد الخراساني والشيخ اسحاق الفياض أدلة حية على موقعه المجدد في علم الاصول عند الشيعة الامامية. وانه صاحب مدرسة مستقلة استمدت مقدماتها ومبانيها من العصر الثالث واشرفت على تاسيس عصر اصولي جديد ستظهر نتائجه في المستقبل.

علم الفقه

بالنسبة لعلم الفقه يذكر السيد الخوئي انه قد بدأ القاء محاضراته في الفقه (بحث الخارج) دورتين كاملتين لمكاسب الشيخ الاعظم الانصاري (قده) كما درس جملة من الكتب الأخرى ودورتين كاملتين لكتاب الصلاة، وشرع في ٢٧ ربيع اول ١٣٧٧ هـ في تدريس فروع «العروة الوثقى» لفقيه الطائفة السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، مبتدأ بكتاب الطهارة حتى كتاب الاجارة(١٠).

ويتضح من هذا النص ان السيد الخوئي باشر بتدريس المتنين الفقهيين الرئيسيين للعصر وهما كتاب «مكاسب» الشيخ الانصاري و«العروة الوثقى» للسيد الطباطبائي اليزدي، وقد تطرق في مباحثه الى كتاب جواهر الكلام في دورته الفقهية الكاملة التي أثمرت تقريرات ومصنفات في الفقه مثل:

١ـ تنقيح العروة الوثقى ٢ـ دروس في فقه الشيعة ٣ـ مستند العروة ٤ـ فقه العترة ٥ـ مصباح الفقاهة ٦ـ محاضرات في الفقه الجعفري... وكتب غيرها تتوازي الانتاج الذي حققته دراساته ومحاضراته في الاصول. وجاء في مقابلة مع السيد محمد مهدي الخلخالي، كاتب «فقه الشيعة»، تقريرات عن محاضرات السيد الخوئي، وذلك بعد شرحه لمميزات فقه مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) ان السيد الخوئي كان عليماً في القاء دروسه في الفقه على هذ المنهج «يقصد منهج مدرسة أهل البيت «ع» مشحونا بدقة النظر وجودة البيان والاحاطة بجوانب البحث، وعرض الأقوال في المسألة وابداء رأيه المختار وتتميمه بدليل مقبول. وقد شرع «قده» في تدريس الفقه حول كتاب «العروة الوثقى» شارحا مسائل هذا الكتاب ومعلقا عليه بآراته الكريمة وموضحا مبانيه الاصولية... وقد ترك السيد الخوئي (قده) على فقه الشيعة دقة النظر وسهولة التناول وتوضيح المطالب الغامضة على حل ممكن مع تطور جديد في المباني الاصولية فاق بها ما سبقه من الفقهاء العظام والاصوليين المحققين كالمحقق صاحب الكفاية والمحقق النائيني (قده) وغيرهما من الاعلام ويدلنا على ذلك وجود آثاره العلمية القيمة في الحوزات العلمية فانها أصبحت محوراً لأبحاثهم العالية ومرجعاً لحل المشاكل العلمية(١١).

واذا استندنا الى مباحث علوم القرآن وتفسيره وعلوم الحديث ورجاله عند السيد الخوئي وأضفنا مؤثراتهما الى جانب تجديده في المباني الاصولية على نتاجه الفقهي، لأدركنا مستوى المباحث الفقهية التي حققها السيد الخوئي، وخدم بها مدرسة ومنهج مذهب اهل البيت (عليهم السلام) ولعل هذا الباب يستحق دراسات متخصصة نرجو ان يعين الله سبحانه الباحثين من العلماء والفقهاء على انجازها.

٢) تعتبر الرسالة العملية(١٢) للسيد الخوئي ومتابعته لحركة الفقه في أبوابه المعروفة مثل العبادات، المعاملات، والايقاعات والاحكام، من أهم الرسائل المعاصرة وقد عمد الى تطوير مضمونها على ضوء المسائل العصرية المستحدثة، التي كان تطرح عليه من مقلديه المنتشرين في مناطق العالم المختلفة، خاصة وأن سماحة السيد (قده) تولى مركز المرجعية العامة للمسلمين الشيعة سنوات عديدة. وعليه يعتبر في هذا الباب من العلوم ـ باب الرسائل العملية والفتاوي ـ مجتهدا ومجددا ومرجعا عاما أجمعت الأمة على علمه وتقواه . وقد طور في فقه العبادات والمعاملات والايقاعات والأحكام ما يستحق دراسة مستقلة لانه لدى السيد الخوئي، وتبعاً لما تجمع عند المشرفين على جمع تراثه، موسوعة من الأحكام الشرعية والفتاوي الفقهية في غاية الأهمية حيث يبدو العمل على جمعها وتبويبها تبعاً لأبواب الرسائل العملية المعروفة عمل كبير يستحق تضافر جهود علمية وفقهية خيرة وهو يعطي للفقه الشيعي وجهه الشرق وطابعه الواقعي المتفق مع متطلبات العصر وحركة الفكر والعمل الانساني في الزمان والمكان، من خلال باب الاجتهاد المرتكز الى علاقة المقلدين بالمجتهد، وشروط الاجتهاد وصفات المجتهد المنصوص عليها في التوقيعات المباركة للامام الغائب (عج). وموسوعة فتاوي السيد الخوئي اذا تقرر لها ان تصدر ستظهر المكانة التي كان يشغلها في عالم الاجتهاد في الفقه..

احياء علوم القرآن والحديث والاصلاح في طرائق التعليم ومناهج الحوزة

اذا تعدينا علم الفقه واصول الفقه وهما عمدتا الدراسة في الحوزات العلمية، الى علوم القرآن وتفسيره والحديث ورجاله، يظهر لنا السيد الخوئي عالماً مجدداً ومجتهداً مبدعاً سن في سيرته العلمية سنة حسنة يقطف ثمارها الطيبة أساتذة وطلاب الحوزات العلمية في النجف الأشرف وفي مشهد وقم المقدستان وغيرها من مراكز العلوم الدينية للمسلمين عامة والشيعة خاصة، ذلك ان مناهج الحوزات العلمية والجامعات الدينية وطرائق التعليم فيها لاتزال موضع نقاش مستمر بين القائمين عليها من أهل العلم والتقوى، وهؤلاء تشغلهم حركة اصلاح مناهج وطرائق التعليم في الحوزة رغم ان التغيير في هذا المضمار انما يحصل بحذر شديد ويستلزم جهوداً كبيرة ودقة معنوية وعلمية مؤثرة وقادرة على احداث الاصلاح حيث يجب الاصلاح..

كان السيد الخوئي (قده) من الرواد في هذا العمل، وقد تحمل من أجل ذلك اعباء كثيرة، وكعادته قاوم بالصبر والمثابرة، والحزم والعلم الاتجاهات المعارضة لاجراء الاصلاحات ضمن حدود الامكان. وقد استفاد من مكانته العلمية ومقدرته التعليمية ومن زعامته للحوزة وموقعه في المرجعية ان يدفع خطة الاصلاح بهدوء الى مجال التطبيق لكن الظروف التي أحاطت بحوزة النجف منعته من اكمال بعض جوانب مشروعه الذي يلقى كل الاهتمام عند الاصلاحيين في خرسان وقم. وذلك ضمن حدود الامكان المسموح به في تقاليد العلم والتعلم في حواضر العلوم الدينية عند الشيعة وهي تحظى باستقلالية تامة وقدرة على ممانعة أي نوع من التدخل في شؤونها من خارج حلقة القائمين عليها من أهل العلم والتقوى.

ولقد اعتمد السيد الخوئي في حركته الاصلاحية التجديدية هذه كما ذكرنا ثلاث دعائم هي التالية:

١ ـ المبادرة الى تدريس علوم القرآن وتفسيره، في حصص خاصة لطلاب الراغبين، خارج أوقات الدوام ووجد في ذلك صعوبة كبرى منعته من إكمال مشروعه الفذ، لكن بدايات جهده أعطت ثمرتها الطيبة.

ـ مقدمة البيان في تفسير القرآن، مع تفسير سورة الفاتحة، وقد لاقت هذه المقدمة اهتماماً ورواجاً في العالم الاسلامي قاطبة، كما استقبلها العلماء الشيعة بتقدير كبير، فتحت مدرسة التفسير القرآني على جهود الباحثين الذين بنوا على ما أسسه السيد الخوئي في هذا العلم الشريف.

٢ ـ وضع مؤلفه الضخم معجم رجال الحديث المعروف «برجال الخوئي» وأحيا هذا العلم بعدما تجاهله العلماء لفترات طويلة، وقد جدد في مبانيه، واستفاد منها في استنباط الأحكام وفي مناحي علم الفقه المتعددة. ويعتبر هذا المصنف ذي ٢٣ مجلداً، موضع دراسة مباحث الرجال في بحوث الخارج في

الحوزات العلمية وهو موضع تعليقات وشروحات عديدة، وثمة من يقترح تلخيصه لتعميم الافادة منه، ومن يقترح شرحه لاحياء جوانب هذا العلم ومؤثرته على العلوم الدينية الأخرى.

ان الكتابة عن تفسير القرآن الكريم وعن معجم رجال الحديث عند السيد الخوئي يلزمها ابحاث مستقلة، ولعله من الرواد في هذين العلمين الشريفين، في حصوننا هذا، وواقع الأمر ان مبادرته الشجاعة وما أسفر عنها من نتاج علمي حققت الأمل باعادة العمل بتدريس القرآن والحديث بعدما تراجعت البحوث القرآنية والحديثية لصالح الفقه والاصول في أكثر الجامعات الاسلامية ولا نعرف بالضبط أسباب هذا التراجع بالرغم من وجود تفسيرات عديدة، لكنها من النوع الذي لا يصمد أمام منهجية النقد وقساوة الهجران، ان للسيد الخوئي في هذا العمل فضلاً كبيراً ومكانة عالية، بحيث اصبحت، من جراء مبادرته، دراسة القرآن وتفسيره والحديث وعلومه ورجاله في صلب المناهج التعليمية في الحوزات، بصرف النظر عن ادراجها رسمياً ضمن هذه المناهج وهي موضع اهتمام كل مشروع اصلاحي يتناول هذه المناهج والطرائق الى جانب الشؤون العامة للحوزات من مختلف جوانبها.

٣ ـ اسلوب السيد الخوئي المميز في التعليم ساعده على النفاذ الى مبتغاه العلمي وتحقيق اهدافه الاصلاحية، وحفظ له مكانة عالية في تاريخ هذا الفن داخل التراث الشيعي الامامي. كان السيد الخوئي معلماً بجبلته الانسانية، يروي بعض تلامذته انه حين كان صبياً يافعاً كان يشوقه ان يعلم اقرانه «الألف باء» واستمر هذا الحب للعلم والتعلم ينمو معه. العلم والتعلم متلقان عند السيد الخوئي مع النمر والنماء. كانت طريقته في التعليم حديثة مستفيدة من المناهج التربوية المعاصرة والشهادات المتعددة التي جمعت عن سماحته تكشف عن عالم معاصر لا يمانع الاستفادة من التطورات العصرية وانعكاس التقدم العلمي والتكنولوجي على المناهج التربوية وطرائق التعليم، ويصح ان نذكر بايجاز بعض مميزات منهجية السيد الخوئي في التعليم خاصة الطرائق التالية (١٢):

١ ـ تحضير الدرس، وكان ذلك يستغرق وقتاً كافياً ويشغله عما سواه من المهمات التي تسبق القاء محاضراته ودروسه.

٢ ـ استخدام وسائل الايضاح عن طريق ضرب الأمثلة وشرح المصطلحات ورغم ان دروسه كانت تلقى باللغة العربية الفصحى وانه لم يتفوه مرة واحدة بكلمة عامية اثناء إلقاء الدروس، فقد كان يلجأ الى اللغات الاسلامية الثلاث التي كان يجيدها وهي: العربية والفارسية والتركية، ليشرح المصطلحات والمباني التي يشعر انها تحتاج الى فهم غوامضها من الطلاب الآتين من البقاع الاسلامية في العالم العربي وتركيا وايران وهضبتها حتى باكستان والهند.

٣ ـ تشجيع الطلاب على طرح الأسئلة اثناء الدرس، ومناقشة الآراء المطروحة، حتى قيل: اذا أردت ان تفهم مسألة في درس السيد اطرح سؤالا عليه أو اثر اشكالا ما على موضوع البحث، والسيد كفيل بافهامك المسألة وعدم ترك جوانب غامضة فيها.

٤ ـ اعطاء دروس خاصة لطلابه النجباء والاهتمام بمتابعة دروسهم ودراستهم خارج الأوقات المعدة لذلك، كان يدرس في أوقات العز، وأيام العطل، وفي الليل(١٣).

٥ ـ كان يوجه طلابه الى دراسة العلوم الدينية المختلفة حسب قابليتهم واستعدادهم. ينصح بعضهم بدراسة التفسير وآخرون بدراسة الفلسفة والمنطق وغيرهم بالأدب ومنهم بالرياضيات والعلوم الحديثة. وهذا الأمر من الطرائق الحديثة حتى في الجامعات الأوروبية. فكان السيد الخوئي «استاذ الكل وزعيم الحوزة العلمية بلا منازع» (١٤).

وبعد، هل يمكن تعيين مكانة السيد الخوئي في الفكر الاسلامي الشيعي المعاصر؟

ان هذا البحث يمثل مقاربة اولية لاعتبارات. تعود الى ان جميع تراث السيد والكتابة عنه لازال مشروعاً في بداياته، لكنها مقاربة تؤدي الغرض وتفتح آفاق البحث لمن يرغب في اتمامه او الاستعانة بها لتحقيق أوسع واشمل. ان انتاج السيد الخوئي في القرآن وتفسيره والحديث ورجاله والفقه واصول الفقه ومسائل الكلام والحكمة وآرائه الفقهية في موسوعة فتاويه، تمثل المتون الرئيسية للدراسات الاسلامية الشيعية المعاصرة في بحوث الخارج في الحوزات والجامعات والمعاهد المختصة بدراسة الفكر الاسلامي وجمع تراث السيد الخوئي يأخذ أهمية كبرى من هذه الناحية. لأن مؤلفاته ومصنفاته اسست لمدرسة جديدة في العلوم التي تناولتسهسا وهي مع رسائل ومكاسب الأنصاري، والكفاية للأخوند الخراساني والعروة الوثقى للطباطبائي اليزدي وشرح المنظومة للسبزواري، ومسائل الفلسفة للشهيد الصدر والمطهري وتفسير الميزان للطباطبائي والحكومة الاسلامية ومباحث العرفان للامام الخميني ـ قدست أرواحهم الطاهرة ـ ميراثاً اسلامياً تعتز به مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فيما يقود الاسلام، بفكره الالهي، ونتاج سلسلة العلماء النوابغ: الحياة الفكرية والروحية لهذا العالم الذي يتخبط بمشكلاته.

وسيبقى هذا التراث العظيم الذي يستمد وجوده من النور الأصيل، متمسكاً بحبال الثقلين، تراثاً مجيداً وباقياً حتى ظهور الامام الحجة صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف.

المراجع:

١) لنظر: الشهيد مرتضى مطهري: الاسلام ومتطلبات العصر، طبعة ايران ص (١٠ ـ ١١١).

٢) للوقوف على مراحل الدراسة في الحوزة ومناهجها وطرائق التدريس والكتب المقررة يمكن العودة الى ابحاث عديدة مفيدة على سبيل الذكر لا الحصر كتاب معالم البواهر للسيد محسن الامين (قده) ومدرسة النجف ـ والاسلام في جامعة العلماء للشهيد مطهري، وكتب عديدة غيرها تتناول هذا المجال، التربوي والتعليمي العام.

٣) استفدنا في تعيين الكتب الاصولية والفقهية وفي الملاحظات حول الطرائق التعليمية في الحوزة من مجموعة مقابلات مع علماء ايران الافاضل، وملاحظات نقدية لاتزال تشهد ارهاصاتها الاولى وان بدأ الحديث عن ضرورة اصلاح مناهج التعليم في الحوزة يسمع بصوت مرتفع، ولقد يكون لنا عودة لهذه المسألة الهامة في مبحث خاص.

٤) السيد ابو القاسم الخوئي: معجم رجال الحديث ج ٢٢ ص (١٧ ـ ١٨).

يخلص هذا النص بالعبرة لاستذكاريه، باعتباره الوثيقة التي يترجم بها السيد لنفسه، وفيه فائدة للباحثين في ترجمة حياته للاشارة الناقصة التي يتضمنها.

٥) المرجع السابق: ص ١٨.

ـ دراسة مباحث السيد الخوئي التفسيرية والرجالية تستحق اهتماماً خاصاً لما تنطوي عليه من ريادة وتجديد وقد آثرنا حفظها ضمن حركته الاسلامية للمناهج والطرائق باعتبارها لاتزال موضع جدل ساخن حتى تاريخه.

٦) التقريرات: عنوان عام لبعض الكتب المؤلفة في اواخر القرن الثاني عشر وبعده حتى اليوم وهو تطوير الأمالي في كتب الحديث للقدماء، والفرق ان الأمالي كانت تكتب في مجلس إملاء الشيخ الحديث من كتاب أو من ظهر قلبه، وكان السامع يصدر الكتاب باسم الشيخ، وبعد من تصانيف الشيخ بخلاف «التقريرات» فانها مجلس علمية يلقيها الاستاذ على تلاميذه من ظهر قلب ويعيها التلاميذ في حلقهم ثم ينقلونها الى الكتابة في مجلس لقرر وبعد من تصانيفهم ولذلك لاحظنا الترتيب في الأمالي على حسب اسماء المشايخ، وفي التقريرات حسب اسماء التلاميذ.

من «العلامة الطهراني» ـ كتاب الذريعة ج ١١ ص ٢٦١، ٢٦٢.

٧) في الواقع يستحق هذا الباب عند سماحة السيد (قده) بحثاً كاملاً في فصل مستقل.

٨) في شهادة له جديدة صرح الدكتور كرمي ان السيد الخوئي يمثل الدورة الثامنة في الأصول عند الشيعة الامامية، يبقى عليه ان يتم تصحيح كتابه الاف الذكر في طبعة جديدة.

٩) السيد محمد باقر الصدر: المعالم الجديدة للاصول، دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٣٨٥ هـ ص ٨٧ ـ ٨٨.

١٠) لقلب أبحاث الخارج حول الأصول تدور حول مؤلفات السيد الخوئي.

١١) السيد ابو القاسم الخوئي: معجم رجال الحديث ج ٢٢، ص ١٨.

١١) من مقابلة للسيد محمد مهدي الخلخالي.

١٢) الرسائل العملية: عنوان عام لرسائل فتوائية تجمع مسائل يحتاج اليها العوام في اعمالهم الشرعية اليومية، اكثر تأليفها في القرون الماضي عشر والثاني عشر والثالث عشر، وفي هذا القرن اكتفى بعض العلماء بتحقيق المراجعي على هذه الرسائل.

من «العلامة الطهراني» ـ كتاب الذريعة ج ١١ ص ٢٦١.

١٣) في الواقع يستحق هذا الباب عند سماحة السيد (قده) بحثاً كاملاً في فصل مستقل.

١٤) من شهادة للشيخ مهيزا رغما لطفي. التعبير الأول «استاذ الكل» سمعته من أكثر تلامذته أما التعبير الثاني فقد اشتهر به.